

طقوس المشط والعقص عند نساء التوارق

مريم بوزيد سبابو⁽¹⁾

1. تقديم

يشكّل شعر المرأة محور اهتمام الثقافات والمجتمعات الإنسانيّة منذ القديم، وما يزال هاجس النّساء في المجتمعات الحديثة، وذلك لما يمثله من رمزيّة ولما يحمله من دلالات جماليّة وسحريّة ترتبط بالخصوبة والجنس أحيانا، وبالعالم الغيبي وعوالم الجان أحيانا أخرى، إذ يشكّل الرأس المكسو بالشعر مفصلة بين الجمال والخطورة، بين المباح والمحظور.

لم يكن اهتمام المجتمعات القديمة بالزينة ومظاهر الجمال مرتبطا فقط بتلك الأغراض الطقوسية الاتقائيّة، اتقاء شرّ العوالم المجهولة، بل ثبت بأنّ ذلك الاهتمام كان مربوطا، أيضا، بالتزيّن، وإشباع حالات ايروسيّة:

"ففي كثير من بقاع الأرض حيث لم يكن المرء قد سمع بعد مطلقا بكلمة "فنّ التجميل"، تتبّع النساء إلى الآن، وحتى الرجال أيضا، نظما خاصّة مغرقة في القدم، في مجال التجميل، لأسباب تعود سواء لمتعة جماليّة صرفة أو لأسباب صحيّة ودينيّة"¹.

⁽¹⁾ Centre National de Recherches Préhistoriques, Anthropologiques et Historiques (CNRPAH), 16500, Alger, Algérie

¹ يوليوس ليبس (2006)، أصل الأشياء، بدايات الثقافة الانسانية. ت. كامل اسماعيل، لبنان، دار المدى للثقافة والنشر، الطبعة الثانية، ص. 29.

2. تصنيف الشَّعر و طقوس الضَّفر

يرتبط أسلوب تصنيف الشَّعر بظروف الحياة الاجتماعيَّة، والاقتصاديَّة والثقافيَّة، مروراً بالوضعيات الطقوسيَّة:

”وبالطَّبع يلعب الطَّقس وظروف الحياة الاقتصاديَّة دوراً رئيسيًّا في تحديد أشكال الموضة. فالتَّسريحة المعقدة تتطلَّب وقتاً طويلاً ورفاهيَّة في نمط الحياة بشكل أو بآخر، فهي تناسب الشُّعوب التي تمارس الزَّراعة، بينما قلَّ أن تسمح حياة عدم الاستقرار، لقبائل الجمع والالتقاط والقنص، بإمكانية تخصيص عدَّة ساعات لتصنيف الشَّعر“².

تشكَّل اهتمامنا بالشَّعر النسائي أثناء العمل على شعيرة عاشوراء، ”سبَّيه“، لدى كيل جانت، كمجموعة حضريَّة مستقرَّة بمنطقة تاسيلي ن آزجر.³

لحدّ كتابة هذا المقال، ليس هناك دراسة حول هذا الموضوع، ماعدا إشارات لها عارضة أو حالات وصفيَّة لا يمكن تغاضيها⁴ وهذا ما جعل مهمَّتنا صعبة نوعاً ما، مع مشكل آخر اعترضنا أثناء العمل بالميدان، ذلك المتعلق بقلّة المعطيات لندرة النِّساء العارفات بخبايا بعض تلك التَّسريحات، من جهة، ومن جهة أخرى اختفاء سياقات انجاز بعضها، أي مختلف الطقوس التي كانت تخصّ جدل الشَّعر وتحويره وفق معايير شعائريَّة واجتماعيَّة.

كذلك عزوف النِّساء حالياً، عن تلك التَّسريحات واستبدالها بأخرى جاهزة، وعدم الاهتمام بموضوع مثل هذا ربَّما هو الذي عقد الدراسة، أي لا يوجد محفّزات للنِّساء حتى يتحدثن عنها أو ينجزنها لقدمها صعوبتها ودقتها.

² نفس المرجع، ص. 40

³ ظهرت بعض من نتائج ذلك البحث في مقالات ومؤلفات منها: سبيبة تليلين، أعياد عاشوراء عند كيل جانت، دار خطاب، 2007. كما سبق هذا صدور الدراسة مترجمة بعنوان:

Sebeiba –Tillellin (2001), *Les célébrations de l'Achoura chez les Touaregs sédentaires de Djanet*, Trad. Touchi Benmansour, l., Editions Barzakh.

⁴ مانقله لنا الأب دو فوكو، في معجمه، أنظر:

Foucauld, C-D. (1951-1952), *dictionnaire touareg – français, dialecte de l'Ahaggar*, Imp. Ntle., 4 vol.

تعتبر دراسة تسريحات الشعر من صميم الأنثروبولوجيا، باعتبار أنّها تتعلّق بظفر وتجديل وعقص الشعر شعائرياً، ضمن أطر اجتماعية عالية الطقسنّة، ولما تملّيه هذه التسريحات من وظائف ثقافية واجتماعية ورمزية. كما تلتصق تسريحات الشعر بمجال المقدّس بما أنّها في علاقة وطيدة بمحظورات الشعر، بين ثنائية ستر وكشف الشعر، إذ تخضع النساء لجملة من المحظورات أثناء وضعيات انتقالية، تتجلى خلال طقوس العبور المختلفة (بلوغ، زواج، حمل وولادة، حداد...).

تفطننا لأهمية تسريحات الشعر المختلفة أثناء دراستنا للشعر المؤدى في شعيرة "سبيبه"، لفهم السياقات الاجتماعية والثقافية والتاريخية لها، وباعتبار الدور الرئيسي الذي تلعبه النساء في هذه الشعيرة، كمؤدية وعارفة بخبايا النصوص وعازقة على طبول "قنقا". فالمرأة الجانتيّة تبرز بروزاً لافتاً من حيث حضورها الطاعي في الاحتفال، ولكونها غرضاً شعرياً مهماً ضمن بقية الأغراض.

لم نحصل على كثير من الشعر المتعلّق بالشعر وجماله، كما في الثقافات الأخرى، كالثقافة العربية مثلاً، بل وجدنا إشارات ترتبط بزينة الشعر، كذكر بوطير⁵: ورتلا د بوطير دالقطارة

يشير هذا الشطر لطغيان النساء الجميلات المتحلّيات بأبهى حلّي الرأس، التي تتسم بها نساء المكانات الرفيعة، وبأعلى حلّي الرقبة، القطارة⁶، الرمزية وباهظة الثمن التي كان ثمنها يقارب أو يزيد عن ثمن جمل.

كذلك وجدنا شطر بيت متعلّق بتسريحة "أسكرف"، تردده النساء، وتحت مطلع لحني مغاير للشطر الأول:
أقسمت شيت أسكرف،

⁵ عبارة عن نوع من النقود التي تستعمل في تزيين الضفائر، وكلّ أنواع النقود كانت مطلوبة، كمجديدي، نقود عثمانية ضربت في عهد السلطان عبد المجيد، وبوطير لوجود طائر وهي عملة نمساوية، عليها صورة الأميرة ماري تيريز (1740-1780).

⁶ حلّية رقبة مكونة من عقيق وكريات فضية تتوسطها قطعة بيضاء أسطوانية الشكل، تكون في الأصل من العاج، وأصبحت من مواد غير ذات قيمة، لندرة العاج، لكنها ماتزال تزيّن رقبة النساء ولاسيما المسنات.

بمعنى صفقي يا نساء العقص

كان سؤالي للنساء بجانت، من الفاعلات في الشعيرة وغيرهن، عن هذه التّسريحة، غير ذي قيمة في بداية الأمر، لأنّهنّ ببساطة لا يعرفن مدلولها، أو لكونها مجرد تلك الزينة التي تضاف "لتالكة"، تسريحة الشعر النسائية الخاصة بمختلف المناسبات الهامة.

عند عودتي من العمل الميداني، وبعد مشاركة فعّالة بالشّعيرة، كمؤدية داخل فضاء "أجديم"، جنب إلى جنب مع المؤديات، "شيت أفاي"، ومن خلال دردشة قصيرة مع والدتي عمّا قمت به، أكدت لي والدتي بأنّها تعرف معنى "آسكرف"، لأنها تربّت وترعرعت وسط نساء مجموعتها ممن يقمن بإنجاز ما يطلق عليه بـ "ثيسوكراف"، وذكرت لي أسماء نساء من منطقتها مازلن لحد الساعة يمشطن شعورهن ويتزيّن بثيسوكراف. وبدأت تمثّل لي كيف تُنجز هذه التّسريحة، من وحي ذاكرة فذة⁷.

سنحاول دراسة طرق تصفيف الشعر الطقوسية لنساء الأزجر والتوارف عموماً، بمقارنتها بتسريحات أخرى، ضمن ثقافات مغايرة، أي من وجهة نظر المنهجية المقارنة، للابتعاد عن الشمولية والأدلجة، ولفهم أعمق لبعض من رموز ودلالاتها.

في البداية كانت رغبتني في تسريحة الشعر بدافع الدّخول في فضاء شعيرة "سبيبه" والغناء وحفظ ما كانت تردّه النّساء، بعدما لاحظت الوقت الذي كان يخصّص لجدل الشعر بالبساتين، قبل أيام من موعد العاشر من محرّم، والعمل المظني الذي تقوم به بعض النّساء القلائل ممن يتفنّن في التّسريحة تلك ويتقنّها. كان يطلق على المرأة الماهرة في انجاز التّسريحات المختلفة، "تمّاليت ن تالكة".

كنت ألاحظ كيف ترتمي المرأة على بطنها مفترشة بساطا بلاستيكيّاً، "آسلا"، أو قماشياً "تباردي"، وكيف تتكئ بالاستناد إلى ذراعها "اسقم".

⁷ كلّ مرّة ازداد يقينا بمقدرة والدتي كواحدة من المهارات من حملة التراث اللواتي يمكن الاتكال عليهنّ في تحمل مسؤولية حفظ ذاكرتنا التقنية، التي تذهب سدى أكثر من غيرها، وتؤكدت من مقدرتها على المقارنات اللغوية والثقافية، ونفاذ بصيرتها. ففي كلّ مرّة تضيء لي جانبا هاما من جوانب بحوثي الميدانية.

كما كنت ألاحظ أدوات المشط: المشط "اسرّيتج"، آلة حادة لقسم وتفريق الشعر، "تزارليت"، ومختلف المواد المستعملة في الانجاز، المياه، الرمل المشوي، "آجلاز"، الخيوط "جلفكفن"، لربط نهاية الضفائر وغيرها من الأدوات والحركات التي كنت أعيرها كامل اهتمامي.

لكنني لم أستطع أن أعرف خفايا تلك التسريحة، "تالكة"، كيفية تقسيم الشعر، مختلف تسمياته، ومراحله، لاسيما وأن تصوير نساء في وضعيات حميمة، كان هدفا مستحيلا، بينما تلك التسريحات تقتضي تصوير فيديو، للذهاب والإياب قصد التحكم في تقنيات الانجاز تلك.

والسؤال الذي ينبغي طرحه، أيمن العمل على تسريحات الشعر النسائية في المجتمعات التارقية، وبأي وسيلة؟

السؤال ليس بديهيًا، بل معقدًا وفي صميم أخلاقيات مهنة الباحث الأنثروبولوجي. أعتقد جازمة أن لا توجد امرأة تكشف عن شعرها لتصور وهي تدرك جيدًا خطورة الصورة، والكشف سواء لغرض الهواية أو العمل الأكاديمي، إلا إذا تمّ ذلك بانتهاك الباحث لقيم وأخلاقيات العلم.

مما لا شك فيه أن جدل وضر الشعر ومشطه، ليس مرتبطين فقط بالجمال، لكنه يشكل مراحل هامة أثناء مختلف طقوس العبور، كما سبقت الإشارة إليه. وبما أنني امرأة وباحثة قد لا يحلّ ذلك المعضلة التي ستعرضني، كلما تعلق الأمر بطقوس نسائية معقدة، أو تفاصيل ارتداء حلي أو ملابس أو غيرها من تفاصيل المجتمع النسائي التي أجد نفسي إزائها عاجزة أمام تقنياتها الدقيقة وتفصيلها المركبة، أمام رفض النساء التصوير والتوثيق لها.

هل يمكن اعتبار الاهتمام بالشعر وتسريحه ومختلف التعديلات عليه، مؤشرًا من مؤشرات الهوية الجماعية؟

إنّ التغيرات الاجتماعية التي خضعت لها مجتمعات التوارف عموماً أثرت على التراتبية الاجتماعية من حيث الشكل الخارجي، دون المساس بتصورات الأصل، وسعت إلى تعميم نماذج من تسريحات الشعر على كامل النساء، بغض النظر على أصولهن. فكل النساء بمنطقة الأزجر يمشطن ويضفرن شعورهن بنفس الطريقة، أي الطريقة المثلى، تسريحة شعر مناسبة، "تان سنات"، الأكثر اشتهاً بكامل المنطقة.

تتوافق هذه التسريحة والمعايير الاجتماعية التي تحدّد المظهر اللائق المرغوب فيه من المظهر المحقر الذي يبرز الأصل المتدنّي، كتسريحة العبدات، "تالكة ن تيكلائين"، أو تسريحة نساء الساحل الإفريقي، "تتفنين"، ويقصد بذلك تسريحة "الرأسطاً"، وعلى النساء جميعاً تجنب أحكام معنفة، محقرة، باستعمال تقنيّات تصفيف شعر عالية:

"كان أحرار مصر القديمة يرتدون باروكة مصنوعة من ألياف نباتية تعتبر بديلاً عن أغطية الرأس، والغاية منها هي الحماية من أشعة الشمس. وكان اختلاف أشكال الباروكات وأحجامها يشير إلى الوضع الاجتماعي، فطبقة الاشراف (ملاك الأراضي) يرتدون باروكات كبيرة الحجم ذات طبقات عديدة من الخصل، أما العبيد والفلاحون فيرتدون باروكات صغيرة وقصيرة، ويصوّرون أحياناً وهم يرتدون قبعات مصنوعة من نسيج كتاني ملتصق بالرأس"⁸.

3. أنماط تصفيف الشّعر والفئات العمريّة

إذا كان مشكل ارتباط تسريحات الشّعر بالهويّة لم يعد مطروحاً بالحدّة ذاتها، فإن ارتباط تصفيف الشّعر بفئات السنّ مازال قائماً، وهذا ربّما يزيد من أهميّة الدّراسة في هذا القرن الواحد والعشرين لأنّ هذا التصنيف كان قائماً لدى جمل المناطق الصحراويّة، إذ وجد في دراسة تسريحات منطقة تندوف، تسريحتان للذكور (الطفولة والبلوغ) وثلاث تسريحات للنساء، تسريحة الطفولة حتى اثنتي عشرة سنة، وتسريحة المراهقة، من اثنتي عشرة سنة حتى سن الثامنة عشر وأخيراً تسريحة البلوغ ابتداءً من سن الثامن عشرة⁹. تشكل تسريحات الشّعر النسائيّة التارقيّة، اهتماماً خاصاً، لعدّة أسباب نذكر منها:

– اعتبارها هندسة اجتماعية ورمزية حقيقية

– ناقلة لمهارات وخبرات قديمة جداً، ومازالت مستمرة لحدّ الساعة

⁸ لوفاميرتسا، م. ن. (2008) تاريخ الأزياء. ت. آنا عكاش، دمشق، منشورات وزارة الثقافة، المعهد العالي للفنون المسرحية، ص. 7.

⁹ Laugel, A.M.M. et Marçais, H. (1954), *Les coiffures de Tindouf (Sahara occidental)*, I.R.S.t. XII, p. 116.

– ماتزال تشكّل لبّ طقوس العبور، التي مازالت تمارس لحدّ الآن
يعتبر تصفيف الشّعر، مشطه وضمّره وعقسه وتزيينه، عند نساء الأزجر
عملية صعبة للغاية والتي تستدعي تجارب وخبرات ومهارات مختصات في
الموضوع. وهذا يعني أنّ ليس كلّ النساء يتمتّعن بالمهارات الكافية لانجاز كلّ
مراحل التّصفيف الطقوسي، بل قليلا هنّ الماشطات اللواتي يتناقص
عددهن، بل أصبح من النّادر إيجاد من يعرفن خصائص وتقنيات انجاز
تسريحة "أسكرف"¹⁰.

تبيّن المعاینات والقراءات الأولى أنّ تسريحات الشّعر النّسائية، في عالم
التوارف، تقتصر على نمط أو نمطين (على غرار الأهقار والنيجر والأصاغ)،
بينما يعطينا الأزجر أنماطا مختلفة مثل: "برنتنت"، "أسكات"، "أسكرف"،
"سنانت"، "أوتان سنانت". وكلّ شكل من هذه الأشكال يتوافق وفئة عمرية،
بل يحيلنا إلى هويّة بالمفهوم المدني.

تشمل تسريحة "برنتنت" الفتيات من عامين إلى حوالي خمس سنوات،
أي عندما ينمو الشّعر ويطول قليلا. تشرع الأمّهات في مشط شعر البنات، إذ
يقسم الشّعر إلى خصلة عند الجبهة، تترك جانبا، ثم يقسم باقي الشّعر إلى
خصلات دقيقة انطلاقا من أعلى الجبهة، مروراً بالشّعر جانبي الرأس،
ويشرع في الضّفر إلى الوراء، عند القفا وأسفل حسب طول الخصلات، ثم
يشرع في ضفر خصلة أعلى الجبهة، والتي تدعى "تكابلت". (الشكل 1) وقد
يطلق على هذا النوع من التّسريحات بـ "تان ضقر"، بمعنى تسريحة
الوراء. (الشكل 2)

¹⁰ بدأت مؤخرا العمل على تسريحات نساء الأهقار، مع السؤال عن تسريحة "أسكرف"، مع ارتكازي
على مؤلف الأب دوفوكو، في غياب دراسات حول هذا الموضوع.

الشكل 1 : تَكَابَلتْ



الشكل 2 : تَانُ صَفْرُ



أما تسريحة "الأسكات" (شكل. 3)، فهي مخصصة للفتيات اللواتي تتراوح أعمارهنّ من خمس سنوات فما فوق، أي إلى سنّ البلوغ، وظهور أول طمث. أوهي كما وصفها دوفوكو:

« تسريحة شعر للفتيات الصغيرات، من سنّ السابعة إلى أربع عشرة سنوات. إذ تصفف الفتيات شعورهنّ بطريقة ما يعرف بأسكات من سنّ السابعة إلى الثامنة وحتى البلوغ. عند مرحلة البلوغ يغيّرن طريقة التصفيف تلك، فيتركن الأسكات ويصففن شعورهنّ بإحداث ضفائر إمبسي¹¹».

لكن "أسكات" منطقة الأزجر، هي عبارة عن تصفيف شعر بنفس باقي الطرق التي سنأتي لذكرها لاحقاً، سواء ما تعلق منها بالبلوغ أو غيره. إذ تبدأ الماشطة في فرق الشعر وضمفره، بنفس الجودة والدقة، لتلك الضفائر التي تنجزها لامرأة بالغة، مع التركيز أولاً على ضفائر "إمبسي" الدقيقة التي يشرع فيها أولاً (الشكل. 4).

الشكل 3 : الأسكات



¹¹ Foucauld, C-D. (1951-1952), *Dictionnaire touareg-français, dialecte de l'Ahaggar*, Imp. Nle, p. 1818-1819.

الشكل 4 : إيميسي



بينما تبقى تسريحة "الأسكرف" الأكثر أهمية في هذه القائمة، والتي ألهمت أكثر من غيرها الشعراء. يبقى الأب دوفوكو شاهدا على الآثار اللغوية والتقاليد المختلفة التي اختفت بعضها منذ زمنه، مثل بعض الألوان الغنائية على غرار "تاريه"¹²، يقول بشأن أسكرف الأهقار:

"عبارة عن زينة تضعها النساء على شعورهن"¹³.

يكمل وصفه للأسكرف: « الأسكرف عبارة عن حشوة من قماش التي تخاط عليها سويقات من خشب متوازية، مزينة بخيوط حريرية وودعات، تربط على الشعر أعلى القفا¹⁴».

¹² تاريه لون غنائي ينتشر في منطقة التاسيلي وبين توارق النيجر، ويشيد بخصال العروسين . لتفاصيل أكثر، ارجع لـ :

Bouzid-Sababou, M. (2010), « Musiques et identité chez les Touaregs de l'Azdjer : cas de Djanet », *revue africaine des sciences sociales et de la santé publique, RASP*, n° 13.

¹³ Foucauld, C-D., *Dictionnaire touareg-français, dialecte de l'Ahaggar*, Imp. Nle, p. 860.

¹⁴ *Ibid*

من الواضح أنّ "أسكرف" نساء الأهقار مغايرا "لأسكرف" نساء الأزجر، من حيث تقنيات الانجاز والشكل.

يبدو أنّ العلاقة بين تصفيف الشعر والخصوبة أمرا بديهياً، حسب الوظائف المخولة لهذه التسريحات، وسياقات وظروف إنجازها. (من حيث الصنع والتكيب والتزيين)

4. تسريحات الشعر النسائية، علامات قبليّة ورموز الخصوبة

هناك العديد من الباحثين ممن ربطوا العلاقة بين تصفيف الشعر والاثنيّات من جهة وربطه بفئات العمر من جهة ثانية :

"...عندما نحاول إيجاد تفسيراً حقيقياً لعبادة التسريحات عند مجتمع برنو، والمال والوقت اللذان يسخرانهما الناس لها، يمكن البدء بالقول أنّه من المؤكد أنّ الرأس، الذي يطلق عليه كلا بالكانوري، هو الجزء الوحيد من الجسم الذي يحمل الاثنيّة، وكذلك كامل الشّخصيّة"¹⁵.

نفس الشيء يمكن أن يلاحظ على المظاهر الماديّة الأخرى، كاللباس، الحلي وغيرها من العلامات الجسديّة، والتي يمكنها تعيين بعض الجماعات أو القبائل أو حتى مجموعات معيّنة في المجتمعات المعاصرة. كما يبقى الشعر محاطاً برمزيّة متعدّدة الأبعاد تربط النساء بعوالم أخرى مرثيّة وأخرى خفيّة. فبين الوظيفة الجماليّة، بين حجب الشعر وكشفه، يمكن الوصول إلى حالة كشيّة لتاريخ الأفكار وتاريخ المجتمعات وتأويل الثقافات.

جدير بالذكر، في وقتنا الحالي، كلّ نساء الأزجر، سيّدات القبائل ذات السيادة، النّبيلة، أو التابعة أو مجموعات الواحة بجانت، لايفوتن فرصة إبراز قيم جماليّة متفنّنة فيها بواسطة هذه التسريحات الشعائريّة بالرغم من تغيير سياقات الانجاز لبعض منها، للتوافق الاجتماعي تارة وأحياناً لغرض التزيّن والإغراء: "يهدف فنّ تصفيف الشعر، إبداعاً جمالياً، ثمرة التأنق الذي يمكن إيجاده لدى الجنسين، إلى جانب الاغراء والجدب"¹⁶.

¹⁵ Bovin, M. (1990), *Relations interethniques au Borno (Nigéria et Niger) : culture matérielle et dichotomie homme/femme*, Paris, Eds. De l'ORSTOM, p. 114.

¹⁶ Decary, R. (1965), « les anciennes coiffures masculines à Madagascar », *Journal de société des africanistes*, t. 35, p. 283.

في السابق، كانت الفتيات البالغات ذوات تسريحة "الاسكرف"، الواقفات بصفّ المؤدّيات أثناء "سبّبه"، أي عاشوراء، لا يضعن غطاء الرأس ولا يغطّين الضفائر، كما الشّان حالياً، ويعود هذا ربّما لوظيفة كان يملئها الاحتفال سابقا، وهو عرض الفتيات قصد الزواج. إذ كان بإمكان الرّجال، الشّباب الرّاقصين، وغيرهم من المتفرّجين من رؤية جمال الفتيات عن قرب ومن ثمّ الاختيار الأفضل للشّريك. و لا تكتمل تسريحة الشّعر و لا تؤدّي وظائفها على أكمل وجه إلا إذا توافقت والأزياء المناسبة التي تبدي رهافة وذوقاً لا نظير لهما، مما يذكر بالثقافة اليونانية مثلاً، تكتب لوفاً ميرتسا :

"أما التّسريحات والاكسسورات فتشكّل وحدة فنيّة متكاملة مع اللّباس تكمل هيئة اليونانيّات، وكان الشّعر الطويل الغزير من العلامات الأولى للجمال في اليونان القديمة، فاعتنوا به وطيبوه بالزيوت وسرحوه بأكثر الطرق صعوبة وثبتوه على الرّأس بمساعدة دبابيس شعر كبيرة أو ربطات واقواس مختلفة، وتنتمي الدبابيس والأكاليل إلى فنّ الصياغة"¹⁷.

يعتبر تصفيف الشعر في سياق الاحتفالات، عند التوارف، ذا صلة وثيقة بخصوبة النّساء قصد تجديد الجماعة وبالتالي المجتمع بكامله. ويلاحظ ذلك أثناء مختلف مراحل شعيرة الرّواج، خاصّة باليوم الأول، أثناء طقس الحنّاء وتهيئة فراش الرّوجين، وكذلك الأمر أثناء طقس المشط:

"يمكن التأكيد على الارتباط الوثيق بين طول شعر النّساء وكثافته والقابليّة على الخصوبة"¹⁸.

فتتخين الضفائر وإطالتها بإضافة بعض المواد، صوف الكباش، عند النّساء المغاربيّات عموماً، أو الرمال، كما رأينا عند النّساء التّارقيّات، والحديد والحطب في مجتمعات أخرى، هي من الأمور المحبّذة التي ترمز للخصوبة، مع الوقاية ضدّ الأرواح الشريرة والعيون الحاسدة.

تعود تقاليد الإضافات هذه إلى العصر النيوليتي:

¹⁷ لوفاً ميرتسا (2008)، تاريخ الأزياء، ت. آنا عكاش، دمشق، منشورات وزارة الثقافة - المعهد

العالي للفنون المسرحية، ص. 27-28.

¹⁸ Champault, D. (1969), *Une oasis du Sahara nord occidental Tabalbala*, Ed. C.N.R.S., p. 188.

”يحدث في العصر النيوليتي أن التسريحة النسائية المقصودة كانت كثيرة الارتفاع حتى أنها أصبحت تشكل تاجا حقيقيا، وهذا بدخول مواد اصطناعية.“¹⁹

5. تجربتي مع تصفيف الشعر على طريقة التارقيّات وحدود الانغماس

من أجل الوصول إلى هدف البداية، لمزيد من الفهم، عايشت المجتمع النسائي في أدق تفاصيل حياته التقنية، وعشت تجربة الجمال والذوق الرفيع، باعتباري امرأة قبل كل شيء وباحثة فيما بعد. عشت تجربتان تأثرت بهما تأثيرا كبيرا. فرغبتني في الوصول لدرجة عالية من فهم الظواهر الاحتفالية التي تشكل المرأة جوهرها، لم يمنعني من أنني عشت تجربة علاقة جديدة بالجسد باعتباري امرأة دخلت المجتمع التارقي من أوسع الأبواب.²⁰

تمثلت التجربة الأولى في وصول أعلى درجات المودة والتفاعل مع السيدة كرام الزهرة باعتبارها أول امرأة استقبلتني بجانتي، أول مرة، فتحت لي صدرها وبيتها وأثارت فضولي للعمل على ”سببها“²¹.

ومنذ ذلك الوقت، بقينا على تواصل دائم كل سنة تُضرب بيننا المواعيد، وكل مرة أكتشف سيدات أخريات من قصر الميزان يزدن من شغفي بالعمل والاستمتاع. كانت تجربة المشط تكملة لتلك الأواصر والعلاقات المسترسلة دوما محبة واحتراما.

كانت السيدة الزهرة تعيش في القصر القديم عندما تعرفت عليها أول مرة، وبعدها انتقلت إلى منطقة ”تنغرت“، بعدما قامت ببناء بيت عصري

¹⁹ Bernolles, J. (1966), *De la permanence de la parure et du masque africains*, Paris, Ed. Maisonneuve et Larose, p. 15.

²⁰ كوني متزوجة من رجل تارقي، وأم لبنتين.

²¹ وكان ذلك في شهر أبريل 1995. وكانت تقول لي إذا أردت فهم تقاليد جانت والتوارق عليك حضور سببها، ستجدين فيها كل ماتريدين.

بالاسمنت وأكثر اتساعاً. هناك استقبلتني في "تفالكات"²²، أين كان بإمكانني أن أنبطح أرضاً بكل راحة، لكي تصف لي شعري، بطريقة تالكة الطقوسية.

1.5. تجربة "تان سنانت"، "تالكة"، عند الزهرة

على غرار باقي المجتمعات التقليدية، يأخذ المجتمع التارقي شعر رأس المرأة على محمل الجد، باعتباره فضاء يحاط بكثير من المحظورات والموانع، وذلك أثناء طقوس البلوغ، "تمنحوط"، حيث يفرض على الفتيات، بعد ظهور أول حيض، أن يغطين شعورهن بغطاء يدعى "آكرهي" أو "آفر"، غطاء الرأس الذي ينسدل على باقي الجزء الأعلى من الجسد، وهذا بالرغم من عدم التشدد في التغطية، إذ يسمح لظهور "إميسي" كعلامة من علامات الأناقة والمظهرية الموافق عليها اجتماعياً.

لا يقتصر فرض غطاء الرأس على طقس "تمنحوط" فقط، بل يتعداه إلى ظروف وطقوس أخرى:

"تحترم النساء، بكل صرامة، وضع غطاء الرأس أثناء أول طمث، أثناء الزواج، وأثناء الحمل والنفاس"²³.

ويعتبر هذا، من الدوافع الجدية التي جعلتني أقرر أن أعيش هذه المغامرة وكل هذه التحولات.

يعتبر طقس "تمنحوط" من الطقوس الهامة عند كيل آزجر. يشهد اليوم تحولات، على غرار التغييرات التي أثرت في كامل النظام التقليدي، دون المساس بطريقة أدائه، إذ تغير مجال ممارسته بالرغم من أنه يؤدي جزءاً من أغراضه بطريقة أوبأخرى. أصبح طقس "تمنحوط" يميز اليوم الأول من شعيرة الزواج (اهن) بجانب العديد من الطقوس الأخرى، مثل طقس الحناء، "أثالا"، طقس المشط، "تالكة" ووضع غطاء الرأس وطقس الفراش، "أفتنغ"،

²² يطلق لفظ تفالكات على ذلك الجزء من ساحة الدار، ويطلق على الكلّ تاونخا، الذي يغطي سقفه، والذي تتم فيه مختلف النشاطات النسائية، والجلوس فيه، وهذا ضمن تقسيم مجال البيت التقليدي بالقصور الصحراوية التارقية.

²³ Hureiki, J. (2003), *Essai sur les origines des Touaregs*, édition Karthala, p. 282.

فراش العروسين. وكلّ هذه الطقوس تصاحبها منظومة غنائية موسيقية خاصة بسكان الأزجر، بدوهم وحضرهم.

"تمنحوط" هو طقس يتعلّق بالذكور والاناث، على إثر التلثم بطريقة مثلى شعائرية، وهو ما يطلق عليه "تجولموست"، وارتداء "أكرهي" عند الفتيات²⁴.

السؤال الذي أرقنا : كيف يمكن العمل على شعر النساء دون مساعدة التقنيات، الصورة أو تصوير الفيديو؟ هذا باعتبار أن الشعر المستعار، الذي جربت العمل عليه، لا يؤدي الغرض العلمي الذي نسعى له. شعر اصطناعي ينزلق بين يدي الماشطة لخفته، ليس ثابتا، ويعتبر العمل عليه مضيعة للوقت وللطاقة²⁵.

تنقل لنا ساسكية فلانتوفيتش (Walentovitz, Saskia) مشهد تصفيف شعر العروس، عند توارف النيجر كالاتي:

"لانجاز هذه الشعيرة، تذهب المرأة الشابة عند تمسرهيت التي تطلب من حرفية مختصة في تسريحة الشعر المعقدة التفاصيل، المسماة تين سنانت. بعد منتصف النهار تبدأ الحرفية بغسل الشعر وتعطيره بواسطة مزيج من البخور (أقوز). بعد ذلك تخضبه بالحناء، غالبا ما يكون ذلك بمساعدة النساء الشابات الحاضرات، وتبدأ بالضفر (أطاف). يتطلب إنجاز هذه التسريحة، التي تتمثل في عدة صفائر صغيرة، متقاطعة، متراكبة أو مبرومة، عدة ساعات". تواصل المؤلفة وصف طريقة التصفيف تلك قائلة: "سأركز، على كونها تبدأ، كما في حالة إغرغون، بالربع الخلفي، للجهة اليمنى وتنتهي بضفر الشعر الموجود في دائرة قمة الرأس"²⁶.

²⁴ لم نجد لفظ "المنحوطي" بالعربية للدلالة على بلوغ الأولاد. بينما وجدنا لفظ "المنقب" للدلالة على "المنحوطي" وليس كما ورد عند دوفوكو، تعبيراً عن النقب.(الجزء الثالث، ص. 1325)

²⁵ وجدت الزهرا صعوبات في ضفر شعري، كونه خفيفاً وأملساً، وبقصة صغيرة أمامية. تفرض العادات والتقاليد، على النساء، عدم حلق شعر الرأس، وما زال ينظر بسخرية وتعجب للشابات اللواتي يذهبن لصالونات الحلاقة التي وجدت مؤخراً بجانب لتصفيف وحلق الشعر، وهذا بالرغم من كلّ التغيرات التي طرأت على المؤسسات التقليدية للمجتمع الجانتي وغيره بالمنطقة.

²⁶ Walentowitz, S. (2002), «partir sans quitter: rites et gestes autour des déplacements féminins chez les Inesman de l'Azawagh », in *Voyager d'un point de vue nomade*, Editions Paris-Méditerranées, p. 41.

يفهم من هذا الوصف، بأنّ هذه المجموعات التارقية بالنيجر (توارف إنسلمن) تعرف نمطين من أنماط تصفيف الشعر، طريقة "إغرغون" و"سنانت". الأولى توجه للفتيات، من مختلف الأعمار، حتى ارتداء غطاء الرأس، هذا الأخير الذي يسمح بالانتقال للتسريحة الثانية.

تجدد الإشارة أنّه بالإضافة لتان سنانت، ضفירתان، و"تان كراضت"، ثلاث ضفائر، و"تان أكوزت"، ذات أربع ضفائر، هي تسميات لنمط واحد من تسريحات الشعر المتعلقة بالنساء المتزوجات، أو حديثات الزواج، إلى سنّ متقدّمة. إنّ عدد الضفائر المجتمعة، بعد عمل شاقّ من صفر ضفائر دقيقة، للعظم الجداري، إما جهة اليسار أو اليمين، قليلا فوق الأذنين، هو الذي يحدّد تسمية طريقة التّصنيف هذه. كما يطلق لفظ "تجبيصت"، على ضفيرة واحدة، بكلّ تقنيّات التّطويل والتّثخين التي تخضع لها، مثلها مثل ذات ضفيرتين، أو ذات ثلاث أو ذات أربع ضفائر.

كما يلاحظ أنّ الباحثة لم تجد لفظا لتسمية شعر دائرة القمّة، التي يطلق عليه "انكب"، كما سنرى، أو ربّما يعوّض بتسمية أخرى بالنّيجر، لم تفكّ الباحثة اللبس عنها.

في نهاية المطاف، ولتفادي أيّ حرج أوليس، وكسب الوقت ولفهم أدقّ، اخترت جسدي لتمارس عليه مختلف تصفيقات الشعر التقليديّة، بوجود المصور النّمودجي الذي لا تجد مصففة الشعر أيّ حرج من وجوده، وهو يتتبع خطوات تسريحات الشعر المركبة تلك، في أدقّ تفاصيلها²⁷.

كما تبقى تقنيّات التّصوير، الفيديو، ملاذا ضرورياً، بالنّظر لدقّة إنجاز تلك التسريحات وتعقيدها، كما أشارت إلى ذلك ساسكيا فلانتوفيتش (Walentovitz)²⁸.

تجدد الإشارة إلى أنّ العلاقة التي تربط الماشطة بالباحثة كنموذج للتّصنيف هذا هي علاقة خاصّة وجديدة في هذا النوع من الدراسات، مما تطلب منّي وقتا وجهدا كبيرين لإقناع الماشطات بجديّة العمل على الشعر، بطريقة

²⁷ المصور هو زوج الباحثة، السيّد سبابو الحسيني، من توارق الأضاع بمالي، والمقيم بجانت منذ وقت طويل.

²⁸ Walentowitz, S., *op.cit*, p. 41.

شعائريّة، وكذلك بإيجاد من يقبلن بهذه المغامرة. كما تبقى العلاقات المرحّة والتبادليّة بين النّساء والباحثة هي الظروف المثلى للوصول لهدف أي دراسة مهما كانت طبيعتها.

بعد ضرب موعد مع الزّهرة، وكان ذلك في فترة بعد الظهر في شهر أفريل (2006)، ذهبت إليها رفقة مصوري. تعتبر الزّهرة صديقة قديمة إذ كانت أول امرأة تعرّفت عليها خلال أول مهمّة بحث ميداني بجانت (1995). مازلنا نحفظ بذكرى تلك الأيام وكيف استقبلتني والحوار الذي دار بيننا وقتها بإحدى البساتين لكيل تُعورّفت²⁹ وكيف تواصلنا بسرعة البرق لأنّها كانت امرأة مرحّة من مجموعة كيبّل جدلّ، وكيف اصطحبتني لبيتها بالقصر القديم بالميزان لإكرامي كضييفة، وبعدها أخذتني لحضور حفل زفاف حتى أتعرف على تقاليد "أموهاغ"، وهذا بعد أن علمت بأنني جزائرية وليست سائحة أوروبية، أي ما يطلق عليها لفظ "تَكَافَرْت"³⁰.

أخذنا مكانا بالطلّ، بما يسمّى "تَفَالَكَات" لأنّ الحرارة تبدأ في الارتفاع قليلا، خلال ذلك الشهر، كما أسرعت بفرش الأرض لنا بـ "تَبَارِي" ، عبارة عن فرش مزركش الألوان، مكون من قطع قماشية تخاط بعضها البعض على شكل مربعات ومستطيلات، باستخدام قماش ألبسة مستعملة أو أقمشة غير مستعملة.

تبدو الزهرة دائمة الابتسامة والمزح، بدأت تبين لي الأدوات الضرورية لانجاز هذه التّسريحة. يعتبر كلّ شيء ضروريا هنا، ابتداء من أبسط خيوط الخياطة (آهدّ) إلى شرائط أقمشة قديمة (إجْلَقْلَقْن) مرورا بخيوط الصوف الصناعيّة التي يطلق عليها "لالين" (من اللفظ الفرنسي La laine)، وصولا إلى مختلف الحلّي التي تزيّن الشّعير وباقي الحلّي الأخرى التي تتزيّن بها المرأة التارقية في مختلف المناسبات والطقوس.

طلبت مني أن أنبطح انبطاحا خاصا بحيث أتكى على ذراعي ممسكة ذقني أو وجهي، وهذا بعبارة "سَقْمَر"، ثم بعدها شرعت في العمل ممسكة

²⁹ كيل تغورفيت، أي أهل "تغورفيت" وهي مجموعة قبلية من المجموعات المشكلة لقصر الميزان.

³⁰ يطلق على الأوروبيين لفظ "إكوفار"، أي الكفار، وإن كان في بدايته يدل على الديانة المغايرة كالسيحية هنا، لكن عم اللفظ على الأوروبيين وإن أسلموا.

أداة "تَزَارُلَيْتُ"³¹ (الشكل. 5) كان العمل شاقًا واستغرق وقتًا طويلًا. لم يفارقني دفتر العمل الميداني الهام لكل دراسة ميدانية، وقلما إذ كنت أدون كل ما كانت تقوله لي الزهرة كماشطة ماهرة ومحترفة، بعدما كنت أسألها وأستفسر عن المصطلحات المرتبطة بمهارة هذا التصنيف.

بعد جمع معطيات وافرة عن مختلف طرق تصفيف الشعر تلك، بدأت بتسريحة "تالكة"، لفظ عام يطلق على كل التسريحات التقليدية، لكنه يعبر أيضا عن تسريحة شعائرية أثناء طقوس الزواج، والتي تنجز خلال شعائر احتفالية أخرى. على الرغم من حضوري للعديد من طقوس المشط الخاصة بالعرائس، لم يكن بالإمكان رؤية كيفية إنجازها جيدا، لوجود العديد من النساء المحيطات بالعروس، سواء من يحضرن الضفر وكامل طقس البلوغ "تمنحوط"، أو تلك الواقفات بطبولهن واللواتي يؤدين مختلف الأغاني الخاصة بالمناسبة.

لأجل ذلك خضعت لتجربة تلك التسريحات، بجعل جسدي امتدادا لفكري، وإن لم يكن الأمر مجرد استرخاء في صالونات الحلاقة، لكن بدخول كامل الجسد تحت محك تلك التجارب: طريقة التمدد لساعات طوال، محاولة تركيز كبيرة حول الأسماء الحركات، والتدوين، تجربة الاتكاء على الساعد، التي كانت مؤلمة لتجربتها أول مرة ولوقت طويل.

كذلك كانت مؤلمة تلك الخطوط التي كانت ترسمها الماشطة على جلدة رأسي.

³¹ عبارة عن أداة من فضة أو نحاس أو من خليط معادن، جيدة الصنع طولية الشكل ومسطحة وتنتهي بنهاية مدببة، تساعد في تفريق الشعر.

شكل 5: تَزَاوَلِيَّتْ



قسم الشعر لعدة اقسام، عشرة، أربعة من كلّ جانب من الرأس، متناظرة: خصلتين من جهة الجبهة، واثننتين على جدار الرأس، اثنتان في اتجاه الصدغين، واثننتين في الوسط، "انكبن"، ج. "انكب"، واحدة في قمة الرأس، والثانية إلى اسفل في تجاه عمة القفا.

نلاحظ، إذا، أن "تقسيم الشعر لا يقتصر، بالضرورة، على سبع خصلات، كما هو الحال لدى نساء توارف إنسلمن بالأزواج أو كما سنلاحظ ذلك عند السيّدة "تأيسات" التي خضت معها تجربة عقص جديدة، ربّما يكون لهذه الأرقام دلالة خاصّة لم أخض فيها بعد.

يطلق على طريقة تقسم الشعر تلك "آزلاي". تبدأ "تماليت ن تالكة"، أو الماشطة في صفر ما يعرف "باميسي" ثمّ صفائر جدار الرأس، وهذا لإنجاز ما يعرف، إمّا "بتجبيصت" (صغيرة واحدة) أو "سنانت" (صفירתان)، هذه

الأخيرة التي خضعت لها (شكل. 6). كما قد يصل عدد الضفائر إلى ثلاث ويطلق عليها "تَان كَرَاَصَتْ"، أو أربع ويطلق عليها "تَانْ أكوَزَتْ".

شكل 6 : سناتت



في أعلى الرأس، إلى الوراء، توجد خصلات "أنكب" (الشكل. 7) التي تمتد حتى القفا وتصل إلى أسفل الظهر. وفي الأخير، إلى الأسفل توجد الخصلتان اللتان تضران، انطلاقاً من القفا نحو الصدغين.

بعد هذه المهمة الدقيقة، تشرع الماشطة في ضمّ ضفائر جدار الرأس وضمّ الضفائر القادمة من أسفل وراء الرأس، بواسطة قطعة قماش مشكّلة شكل الحرف اللاتيني V.

شكل 7 : أنكب



وهذا بعد خضوع الضفائر إلى عمل عالي الدقة، بتثخين الضفائر وإطالتها وهذا بإضافة خيوط الصوف الصناعيّة، وبعد مرحلة خياطة الضفائر الواحدة بجانب الأخرى وهذا بهدف انسجام التسريحة كاملة. وبما أنّ تصفيف الشعر وتزيينه مترابطان ارتباطا وثيقا، يتوجّب على الماشطة أن تكمل العمليّة بخياطة نقود فضيّة، على الضفائر، والمعروفة باسم "مُجيدتّن". وأخيرا تغلف الضفائر على جانبي الرأس بقماش رفيع، مشكلة بذلك ما يعرف بـ "آدان" (الشكل. 8). بينما صغيرة القفا المشكلة من "انكبن"، والتي تخضع لنفس عمليّة التّثخين والإطالة والتغليف كذلك، تنتهي بحلية شعر يطلق عليها "سكاوة".

شكل 8 : آادان



2.5. تجربة "أسكرَفُ أوروكُو" عند "تأيسات"

تعتبر التّسريحة التي يطلق عليها "أسكرَفُ" من أصعب التّسريحات لأنّها شكّلت لي صعوبة في إيجاد امرأة تتقنها. فقد وجّهت في البداية نحو امرأة مسنّة، أخذ المرض والسّنّ منها مأخذهما، وهذا ما منعني من الاتصال بها. وبينما كنت في زيارة لعائلة صديقة، سمعني ربّ العائلة³² وذكر لي السيّدّة "تأيسات"، جارتهم التي قد تساعدني فيما أريده. ولم اضيّع الفرصة، وبسرعة توجّت إليها، وعندما شرحت لها ما أريد، تعجّبت لطلبي وقابلته بسخرية واستهزاء، متسائلة كيف لامرأة قادمة من الشّمال، العاصمة، وباحثة تريد أن تلطّخ شعرها بالتراب.

(مَا فُولُ تَاجِدُ الكَنِيسُ فُولُ إِغْفُ نَمُّ؟)

³² إنّه إمام الحيّ كذلك، ممن ساعدوني كثيرا في بحثي، وكذلك زوجته وبناته، وأنا مدينة لهم بما وصلت إليه من بعض نتائج البحث الهامّة.

لم أضيّع وقتا كبيرا في إقناعها بأن عملي يهدف لمعرفة مختلف أشكال تسريحات الشعر التقليدية لإمكانية المحافظة عليها والمحافظة على مهارات الجدات في مجال تصفيف الشعر، ولأجل هذا الغرض أتحمّل أيّ شيء.

بسرعة حدّد موعد إنجاز تسريحة "آسكرف"، وعندها طلبت السيدة تايسات من زوجي بإحضار الرّمّل الجيّد من الوادي (أمّصال ن تَغْرِيْت وَ يَهُوسِيْن) ووسائل وأدوات أخرى للرّينة.

مثلها مثل الرّهرة، قسّمت "تايسات" الشعر إلى نصفين متناظرين، بفلقة وسطية من الجبهة حتّى القفا، مع ترك خصلة شعر في الأعلى وسط الرأس، أنكب، مستعملة على غرار باقي النساء أداة "تَزَالِيْت".

تدعى عملية تقسيم الشعر تلك بـ "آزلاي"، أي بمعنى فصل شيء عن آخر، ومن هنا قد أتى اشتقاق "تَزَالِيْت"، طقس انفصال العروس عن جماعة أوقبيلة الأمّ والتحاقها ببيت الزوجية³³.

بينما تسمّى عملية الضّفّر، "أتل"، والذي يعطي أسماء الضفائر "تتلين"، والذي يطلق عليه لدى توارف النيجر "بألطاف"³⁴.

قسّم الشّعْر هنا إلى سبعة أقسام، أو خصلات، ثلاثة في كل جهة وخصلة أنكب إلى الوراء. بواسطة مشط والماء، دون دهن شعر خفيف مثل شعري، تبدأ الماشطة، بداية، في ضفر أوعقص ضفائر دقيقة بمستوى الجبهة (ضفيران متناظران) يطلق عليها "إميسي".

ثم تصعد إلى الأعلى، بنفس مبدأ التناظر، لضفر العديد من الضفائر الصغيرة، ثمّ تجمعها واحدة بجانب الأخرى. عندما تجمع تايسات شعر الأعلى مع شعر الصدغين، في ضفيرة واحدة، تبدأ في تفريقها إلى ثلاث ضفائر، ثم تشرع في تثخينها واحدة تلوى الأخرى بواسطة إضافة الرمال

³³ تحتم الأعراف والتقاليد على العروس أن تبقى مدة طقس الزواج ثلاثة أو سبعة أيام أو سنة. عند الذين مازالوا يحافظون جيدا على التقاليد، عند الأهل، وبعدها تنفصل بواسطة هذا الطقس.

³⁴ حسب مذكرته ساسكيا فلانتوفيتش في دراستها المذكورة سابقا.

(الشكل. 9) والمياه. في الأخير تربطها وضمائر الورااء بقطعة قماش، مشكلة الحرف اللاتيني U وهذا الشكل يطلق عليه "روكو"³⁵.

شكل 9 : تثخين الضفائر بالرمال



تزيّن الضفائر المنسدلة عند الصّدغين بحلّية تدعى "تيرَاتين" وأخرى يطلق عليها "تَجْبَاوين" (شكل. 10). وهذا دون إهمال صغيرة الورااء التي تأخذ نفس الاهتمام.

³⁵ عبارة لوصف الشكل الأخير لتسريحة "آسكرف".. يعني تعبير "روكو" البردعة، بردعة الحمار. وهذا ما يسبب الضحك والسخرية.

شكل 10 : تَجْبَاوِين



تستعمل تقنية إضافة الرمال هذه قصد إظهار التسريحة بمنظر لائق، مع مسحها بالأيدي المبللة كل لحظة بالماء، وتقنيات وطرق أخرى عرفتھا النساء في ثقافات أخرى:

“في وقتنا الحاضر، تلجأ النساء بالمغرب لآلاف الطرق لإعطاء تسريحاتهن الكبر والرّخاء المطلوبين، فلتتخين الضفائر وإطالتها: و بين الإضافات المستعملة، نجد خيوط الصوف، أووبر الماعز، كبة أو مخدّات”³⁶ تقتضي العادة إضافة ما يسمّى “بأجلّاز”، الرّمل المشوي، للحصول على اللون الأسود المرغوب فيه لدى مجتمعات التوارف:

“كان الشعر يدهن بالزّبدة المزوجة بالرمل المحروق حتى يسترجع بريق لون الشعر الأسود. ولكن أيضا لكون ثقل الرمل يشدّ الشعر نحو الأسفل ويزيد من طوله، وينشطه ويدفعه للنمو”³⁷.

³⁶ Morin-Barde, M. (1990), *Coiffures féminines du Maroc*, Aix-en-Provence, edisud, p.17.

³⁷ Hureiki, J. (2003), *Essai sur les origines des Touaregs*, p. 259.

من جهته، يصف لنا لوت (Lhote) مشهدا لتصفيف الشعر عند تارقيات الأهقار، قائلا:

”تحمل النساء عددا معتبرا من الضفائر التي تنسدل على جانبي الصدغين... يبدأن في حلّ الشعر بواسطة مشط صغير بعد وضعه في الرمل ورماد الحطب... تفرّق الماشطة الشعر خلايا بواسطة موسى صغيرة، وتغطسها في الماء والزبدة ثم تضفرها، إما ضفائر ثخينة حتى تحصل على ثلاث أو أربع، تسقط من الجانبين، أو العديد من الضفائر الدقيقة. فدهن الشعر بالزبدة ليس له هدفاً آخر غير حمايته من أشعة الشمس وخاصة ضدّ الهواء الجافّ جدا والذي يجعلها تتقصّف“³⁸.

بيّن لنا حوريقي (Hureiki) وظيفة الرّمّل التزيينية والجمالية بالدرجة الأولى. بينما لوت (Lhote) لم يفسّر لنا وظيفة الرّمّل المضاف، بل فسّر لنا وظيفة الزبدة التي تخوّل لها حماية الشعر من الحرارة والتقصف بفعل عوامل المناخ الصحراوي الجافّ.

كذلك كانت نساء العرب تصفّف شعورهنّ على هذا المنوال، وتسمّى هذه الطريقة من تصفيف الشعر بإضافة مواد خارجية، العقوص، أي أنّنا هنا أمام تسريحات شعر اصطناعية، عرفت لدى الشعوب قديما.

والعقوص: خيوط تقتل من صوف وتصبغ بالسواد وتصل به المرأة شعرها... وعققت المرأة شعرها تعقسه عقصا: شدته في قفاها³⁹. وهذا هو بالضبط ما يطلق عليه ”تيسوكراف“ هنا بالشمال، وبقي يتطور العقص حسب الوسائل والأدوات المضافة والمستخدمّة في الانجاز.

إذا كانت النساء ومازالت تعمل على خلط الشعر بالعديد من المواد والإضافات، كالرمال، صوف الحيوانات أو الصناعية، ليبيّن ضخامة الشعر وفخامة المظهر ورفاهية المنظر العام، وكلّ الإضافات قد تؤدّي الغرض لإبراز شكل الرأس الذي يكون دائرياً في بعض المجتمعات، أو متوازيا حسب الشكل الذي تأخذه الضفائر، نحو الأعلى أو الأسفل، وهذا ما يجعلنا نعيد

³⁸ Lhote, H. (1944), *Les Touaregs de l'Ahaggar*, Paris, Payot, p. 258.

³⁹ ابن منظور (1988)، *لسان العرب*، بيروت-لبنان، دار إحياء التراث العربي، الطبعة الأولى، ص. 320.

التفكير بعد رجوع البوستيش (Postiche) بقوة منذ أكثر من عقد من الزمن، كموضة بين العرائس وتسريحات السهرة للعديد من النساء في المجتمعات الحديثة.

6. خاتمة

ترتبط طرق تصفيف الشعر عند النساء التارقيات بقائمة تلك التسريحات الشعائرية التقليدية بالبلدان المغاربية والعربية ومجتمعات الساحل الإفريقي، إذ حوّلت لها العديد من الوظائف انطلاقاً من تلك المتعلقة بالسنّ، والانتقال من مرحلة عمرية إلى أخرى ("برئتنت" ، "أسكات") أو وظيفة البلوغ الاجتماعي، "تمنّجوط" ("أسكرّف" ، "تأن سناتت").

كما تشكل هذه التسريحات، لبّ العديد من الطقوس، ومن هنا تنفصل عن تسريحات الشعر الرجالية التي تكون خارج المناسبات.

فخارج وظائفها التزيينية الإيروسيّة، يمكن للتسريحة النسائية أن تصبح علامة قبلية أو تعيين الانتماء لجماعة اجتماعية أو قبلية، وكذلك تملّي وظائف مرتبطة بطقوس أساسية في المجتمع كالزواج والمشاركة في مختلف الشعائر الاحتفالية.

"فالتسريحات التي نجدها عند مختلف الشعوب، خلال عصور التاريخ المكتوب وغير المكتوب، تدخل طي النسيان، وحالما تعود إحداها للظهور لتصبح "جديدة" يمكن للمراقب الدارس والمتفهم للتاريخ الحضاري أن يستخلص منها نتائج شيقة، لأنه بدلاً ظاهرياً في أشكال التعبير الانساني، يدلّ غالباً على تغيير عام في العقلية"⁴⁰.

ويبدو أنّ هذه التسريحات لا تختفي تماماً بل تعاود الظهور بواسطة الموضة التي تعبر الأزمنة والثّقافات وتقتبس منها، بل تعيدها بشكل أكثر استهلاكاً بواسطة وسائل الإعلام وتقنيات الإشهار التي تروّج لكل بضاعة تخرج من دور العروض العالمية. فلقد عاود ظهور القصة المسطحة عند الجبين

⁴⁰ لبيس، ي. (2006)، أصل الأشياء، بدايات الثقافة الانسانية. ت. كامل إسماعيل. لبنان، دار المدى للثقافة والنشر، الطبعة الثانية، ص. 39

(la mèche plate) والتي تتخذ مبدأ "إمبسي"، أو "السالف" في مناطق أخرى و"المهدور" في منطقة ورقلة، و "الرقد" بمنطقة تندوف، وهذا على سبيل المثال لا الحصر.

المراجع بالعربيّة

ابن منظور (1988)، *لسان العرب*، بيروت-لبنان، دار إحياء التراث العربي، الطبعة الأولى.

بوزيد سبابو، م. (2007)، *سببية تللين، أعياد عاشوراء عند كليل جانت*، دار خطاب.

لوفاميرتسا (2008)، *تاريخ الأزياء*، ت. أنا عكاش، دمشق، منشورات وزارة الثقافة - المعهد العالي للفنون المسرحية.

ليبس يوليوس، أصل الأشياء، *بدايات الثقافة الانسانية*، ت. كامل اسماعيل، سورية، دار المدى للثقافة والنشر، الطبعة الثانية.

المراجع بالفرنسيّة

Bernolles, J. (1966), *De la permanence de la parure et du masque africains*, Paris, Ed. Maisonneuve et Larose.

Bourgeot, A. (1969), « Le costume masculin des kel Ahaggar », *Libya*.

Bouzid-Sababou, M. (2010), « Musiques et société chez les Touaregs de l'Azdjer : cas de Djanet, *Revue africaine des sciences sociales et de la santé publique*, RASP, n° 1

Bouvin, Mette (1990), "Relations interethniques au Borno (Nigéria et Niger) : culture matérielle et dichotomie homme/femme", *Relations interethniques et culture dans le Bassin du Lac Tchad. Actes du IIIème colloque MEGA-Tchad*, Paris, orstom. Eds de l'orstom. Institut français de recherche scientifique pour le développement en coopération, Paris.

Champault, Dominique (1969), *Une oasis du Sahara nord occidental Tabalbala*, Ed. CNRS.

Decary, Raymond (1965), « les anciennes coiffures masculines à madagascar », in *Journal de société des africanistes*, t. 35.

Demoulin, F. (1928), «La vie des Touaregs du Hoggar», in *Annales de géographie*, t. 37, n° 206.

Foucauld, C-D, (1951-1952), *Dictionnaire touareg-français, dialecte de l'Abaggar*, Imp. Nle, vol, 4.

Hureiki, Jacques (2003), *Essai sur les origines des Touaregs*, Edition Karthala.

Laugel, A.M. M., et Marçais, Ph (1954), «Les coiffures de Tindouf(Sahara occidental) », *I.R.S.T. XII*

Lhote, H. (1944), *Les Touaregs de l'Abaggar*, Paris, Payot.

Morin-Barde, Mireille (1990), *Coiffures féminines du Maroc*, Aix-en-Provence, Edisud.

Walentovitz, S. (2002), « partir sans quitter » : rites et gestes autour des déplacements féminins chez les Touaregs Inesleman de l'azawagh » in *Voyager d'un point de vue nomade* (sous la dir. De H. Claudot Hawad), Aix-en- Provence, IREMAM.